الازدواجية اللغوية: مفاهيم و إرهاصات

أ/ دليلة فرحي
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر، بسكرة

اللغة ظاهرة اجتماعية تترابط وظيفيا مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى . فهي دائمة التغير مع التحولات التي تعتري البناء الاجتماعي، تقوى و تضعف تبعا لمقتضيات الحال، و ما يستجد مع صيرورة الحياة الاجتماعية و ديمومتها.

فاللغة ليست رموزا و مواصفات فنية فحسب، ولكنها إلى جانب ذلك منهج و فكر و أسلوب و تصور لوقع الأمة و رؤية شاملة لقضاياها و مشاكلها ، "و الحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى، قديمة و حديثة طارئة و مناخية مزاجية بيولوجية متشابكة في نسيج معقد" (1) فهي التي تجذر المتكلم في وسطه الاجتماعي و تعطيه أحد أبعاد هذا الانتماء فإذا كانت اللغة الأم تعطي الإنسان حق الانتماء و جنسية الفكر و الهوية . فان اكتساب الإنسان للغة ثانية يكسبه جنسية فكر ثانية و هوية أخرى و يعطيه حق الانتماء الثقافي لثقافة أخرى. ولنا أن نتساءل هل الازدواج اللغوي ازدواج لسان فقط ؟ أم هو ازدواج ثقافي بجميع معايير الهوية ؟

و نظرا لتعقيدات الازدواجية اللغوية بين الثقافات و تمركزها بين علوم شتى منها علوم اللسان وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأعصاب اللغوي والبيداغوجيا الخ. حقا هناك صعوبة في تحديد مفهوم واضح و شامل لها بسبب تعقيدات الضفيرة الثلاثية القاعدية لها(الفرد، المجتمع، اللغة).

و تعريف الازدواجية اللغوية في إطارها التقليدي يوحي بالسطحية في الفهم والإعاقة في التحليل كما أشارت إلى ذلك الباحثة كيلر حين قالت "انه لمن المنطق تحليل ظاهرة الازدواجية اللغوية في إطارها التقليدي اللغوي و لكنه تحليل معوق عند تحليل أية ظاهرة و خاصة إذا كانت ظاهرة الازدواجية اللغوية" (2) . بالاظافة إلى هذه التعقيدات هناك صعوبات أخرى تعرقل تحليل الازدواجية اللغوية و توظيفها في إطارها اللساني الاجتماعي خاصة المتعلقة باللغات و الأفراد و الدول كتعدد اللغات و توزيعها عبر العالم . و اللغات العالمية المهيمنة على الفضاء آت اللسانية. و قد حاول كثيرا من العلماء تحليل ظاهرة الازدواجية في إطار معين حيث عرفها مار وزو بأنها "حالة الفرد و الجماعة في استعمال لغتين دون تفضيل لإحداهما على الأخرى" (3). و هذا التعريف يشير إلى شبكة الاتصالات اللغوية بين الأفراد و الوظيفة الاجتماعية اللغة .

أما المعاجم المتخصصة فإنها تشير إلى الازدواجية اللغوية في إطار التخصص حيث يعرفها دي بوا Dubois بأنها "الوضع اللغوي الذي يستعمل فيه المتكلمون لغتين مختلفتين حسب البيئة الاجتماعية و الظروف اللغوية"(4) . و يشير هذا التعريف إلى الوظائف الاجتماعية للغات في فضاء لغوي و محيط اجتماعي مما يستوجب تحديد مركزية اللغة و وضعها القانوني .

أما الموسوعة الجغرافية فيؤكد اندري André فيها بأنها "إنها الوضع الذي توجد فيه لغتان في نفس البلد إحداهما لغة الأغلبية و الأخرى لغة الأقلية و لهما نفس الوضع القانوني و الإعلامي و كذلك في الدوائر الحكومية مثال ذلك بلجيكا ، كندا ، فنلندا ، سويسرا ، دول المغرب العربي(الجزائر ، تونس والمغرب) ، و جمهورية جنوب افريقية (5)" .

و قد أشارت تعريفات أخرى إلى القدرات الفكرية و اللغوية للأفراد ألمزدوجي للغة كما أشار بلومفيلد Bloum Field :"بأنها قدرة الفرد في التحكم في اللغة الثانية بسهولة مشابهة للتحكم في استعمال اللغة الأم "(6) . ومنه فإننا نلاحظ أن الربط في السلوك اللغوي بين اللغة الأم و اللغة الثانية أمر نادر إلا في حالات الزواج المزدوج كما تشير إلى ذلك كثير من الدراسات الامبريقية في إطار دراسة الحالات الافرادية.

أما جورج مونان George Mounin فيعرف هذه الازدواجية " بأنها قدرة الفرد في استعمال لغتين أو أكثر"(7) . و هذا الاستعمال الفردي للغتين أو أكثر يؤدي إلى صعوبة التفرقة بين الاحتكاك البنيوي البسيط و العلاقات السيكولوجية اللغوية الخاصة بإدماج البنيات المختلفة في الفعل الرسالي. ذلك أن وظائف اللغة عند كل فرد وعمليات التفضيل في استعمال كل لغة في وظيفة معينة و قدرة الفرد المزدوج على التعبير في مواقف مختلفة باستعمال إحدى اللغتين و قدرته على التحول من نظام لغوي إلى آخر بسرعة أو ببذل جهد لغوي معين كالترجمة بما فيها من خيانة من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف باستعمال نظامين لغويين مختلفين بالكفاءة نفسها. فهذه العوامل المتشابكة المتجلية في السلوك اللغوي للفرد والجماعة ترجع إلى المحيط الاجتماعي والى الطريقة التي تم بها اكتساب اللغة الثانية والى الدوافع الأساسية الفاعلة في العملية التعليمية. كل هذه العوامل تشير إلى التباين في قدرة الفرد على استعمال لغتين في سياق التواصل والكفاية اللغوية . ولتوضيح هذا التباين نشير إلى التمييز الذي أقرته اللسانيات التوليدية التحويلية بين الكفاية اللغوية و الأداء الكلامي.

"فالكفاية اللغوية هي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي تتيح إنتاج الجمل ، وهى مكتسبة في مرحلة الطفولة وخلال نمو الطفل وترعرعه في بيئته الطبيعية.

أما الأداء الكلامي فهو تمظهر هده الكفاية اللغوية في الأفعال الكلامية، أى استعمال هذه المعرفة في عملية التكلم " (8).

هذه التعاريف تحيل إلى قضيتين قاعديتين :

1- الكفاية

2- الإتقان

فالكفاية اللغوية التي تعد الحقيقة المحورية بالنسبة اللغة الأم هي المحرك الديناميكي اللغوي للتحكم في اللغة الثانية كما تشير الدراسات الامبريقية بطابعها الشخصي و السيكولوجي بحالات مركزية و تأثيرات على الاكتساب اللغوي وهي تخضع لإمكانات الشخص المزدوج كما هي الحال في حالة الزواج المختلط ونموذج رونجات في كتابه: "تطور الكلام عند الطفل المزدوج" (9) .

حيث أجرى هذه الدراسة على ابنه الذي ينتمي منذ نعومة أظفاره إلى مجتمعين لغويين مختلفين. الأم ألمانية والأب فرنسي (يعيشان في فرنسا و لغة الدراسة فرنسية) و لقد أسفرت تلك الدراسة على:

– أن لغة الأم (الألمانية) كانت أقرب إلى العاطفة والى قلب الطفل فتفوقت في مجالات الشعر و التركيب الشعري و الأدبي.

–وتبينت أن لغة الأب (الفرنسية) تفوقت في مجالات الرياضيات، الفيزياء، التقنيات و النحو.

أما بالنسب للقضية الثانية و هي قضية الإتقان فهي ليست نادرة و لكنها تختلف من شخص إلى آخر، فقد يكون الإتقان كتابة دون النطق و قد يكون العكس كما أن هناك أحوالا كثيرة، شخصية و مميزة منها ما يرجع إلى ظاهرة الازدواجية اللغوية، و إلى الأفراد و المجتمعات و الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية للأفراد والمجتمعات. و حتى بالنسبة للغة الأم فإننا نختلف كثيرا من حيث الرصيد اللغوي فليست لدينا الإمكانات اللغوية نفسها. فبعضنا يستعمل اللغتين بسهولة مع تأثير بسيط في المستوى الصوتي والتعبيري بالنسبة للغة الأم، مع تسجيل وجود عوامل أخرى للتحكم في اللغتين جيدا واللافت للنظر أن التحكم في النطق لا يكون إلا في لغة واحدة خاصة في المستوى الصوتي – التنغيمي،كما يسجل أن فئة أخرى تتكلم جيدا ولكن ينقصها التعبير خاصة في المستوى التركيبي و النحوي لإحدى اللغتين ، مع وجود فئة ثالثة تمتلك رصيدا لغويا باللغتين في مختلف المجالات (العلمي – التقني – الأدبي).

وقد حاول وليام فرنسيس ماكاي William Francis MC Key الخبير في الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي تجنب هذه المفاهيم و اقترح مفهوما شاملا للازدواجية اللغوية و اعتبرها :" مفهوما نسبيا و ليس مطلقا" (10).

و لكننا نقول انه إذا تعلق الأمر بقانون النسبية كما هي الحال في العلوم الاجتماعية فانه يتوجب تحليل الظاهرة من خلال تحليل العوامل الفاعلة فيها والمتغيرات المتمركزة في كل حالة جماعية أو افرادية و من هذه العوامل :

1- الوظيفة القانونية والاجتماعية للغات الفاعلة في المجال اللساني ، كالوظيفة الخارجية للغة عن طريق عناصر الاتصال والتواصل و الاستعمالات لكل لغة من مثل:

- المدة.
- والتكرار.
- والضغط الاجتماعي(التواتر).

و الوظيفة الداخلية و علاقتها باللغة التعبيرية، كالتواصل الشخصي في الوسط العائلي (الأصدقاء – العبادات – حالات الفرح و الحزن والقلق)

2- درجة الكمال والإتقان بالنسبة للغتين.

3- نسبية التداخل و الاقتراض اللغويين عند الفرد أو الجماعة.

كما أن نسبية وليام فرنسيس ماكايWilliam Francis MC Key تتطلب استعمال "بعدين للقياس الأفقي و العمودي" (11)، فالبعد الأفقي يأخذ بعين الاعتبار القدرة اللسانية و الرصيد اللغوي بالنسبة للغة (أ) واللغة (ب).

أما البعد العمودي فيعتمد على درجة التحكم في اللغة بوصفها نسقا عاما لجميع المستويات (المستوى الصوتي – المستوى المعجمي – المستوى الدلالي – مع التركيز على مستوى الرسم الكتابي) و قد يكتفي الباحث بمستويين أو بثلاثة مستويات حسب المدونة، أو دراسة الحالة مع تتبع المراحل الآتية في حالات الأداء اللغوي:(شفوي – قراءة) و (خطاب – كتابة) مع مراعاة: (الموضوع – الشخص – الضغط) و هي عوامل أساسية للفهم والتبليغ. و باستعمال نظرية الأبعاد، تتضح ظاهرتا التداخل و الاقتراض اللغويين بالنسبة للفرد المزدوج. فإذا كانت ظاهرة التداخل اللغوي غامضة بالنسبة **للسلوك** اللغوي للفرد المزدوج عند استعماله خصائص لغة معينة في لغة أخرى، فهو يخضع لظروف ونماذج المجتمع اللغوي و درجة التحكم في اللغتين نطقا و كتابة، فكلما كان الحديث تلقائيا كلما كان التداخل اللغوي كبيرا و كانت قاعدة القياس معقدة وخاصة عند الاعتماد على نص لغوي في مواجهة نموذج أصلي للغة الهدف، حين تكون المقارنة بين النموذج والاستجابة وعلى مختلف المستويات التعبيرية مما يسمح بحساب دقيق للقياس الكمي لظاهرة التداخل، و هي الظاهرة الأكثر خطورة بالنسبة لتحديد مفهوم الازدواجية اللغوية والتعرف على السلوك اللغوي للفرد المزدوج. و لتوضيح ذالك نعتمد الأنماط المحورية على مستوى

العلائقية والمثاقفة بالنسبة للفرد المزدوج كما أشار إلى ذلك الباحث المغربي أحمد بوكوس Boukous Ahmed (12):

1. Le bilinguisme est dit "composé" ou "mixte"

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها مركبة أو مختلطة" إذا كان استعمال اللغتين استعمالا لا يميز بين لغة وأخرى أو يكون استعمال اللغتين سريعا بمعنى الانتقال في الخطاب من لغة إلى أخرى بشكل سريع.

2. Le bilinguisme est dit "coordonné"

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها منسقة" عندما يكون استعمال اللغتين بطريقة منظمة ووظيفية حسب حالة التواصل.

3. Le bilinguisme est dit symétrique

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها متماثلة" عندما يكون التحكم في اللغتين متساويا.

4. Le bilinguisme est dit asymétrique

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها غير متماثلة" عندما يكون التحكم في اللغتين غير متساو.

5. Le bilinguisme est dit d'intellection et d'expression

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها إدراكية وتعبيرية" عندما تكون اللغتان مفهومتين ومعبرتين.

6. Le bilinguisme est dit d'intellection

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها إدراكية فقط" عندما تكون إحدى اللغتين مفهومة لكنها غير مستعملة.

7. Le bilinguisme est dit transitionnel ou stable

"يقال عن الازدواجية اللغوية إنها انتقالية أو ثابتة" وذلك حسب العلاقات القائمة بين اللغات المتداولة. وإذا كانت اللغتان لهما سيطرة غير متساوية على مستوى الاعتراف الرسمي والاستعمال اليومي، فان وضعية الازدواجية اللغوية تكون غير ثابتة.

من خلال هذه التحليلات المختلفة لظاهرة الازدواجية اللغوية نلاحظ مدى الصعوبة في تحديد مفهوم عام بتعريف شامل لها. ومع ذلك نقول إن الازدواجية اللغوية هي الوضع اللغوي الذي يستعمل فيه الفرد أو الجماعة لغتين بالتناوب، و حسب الظروف، والقدرات

اللغوية و وظيفة اللغة بالنسبة للفرد والجماعة، ويكون القياس فيها خاضعا لأهداف التعليم و السياسة اللغوية لهذا البلد أو ذاك و هنا تظهر محورية النسبية و عدم الإطلاق فيها.

أما الاقتراض اللغوي فهو عبارة عن تبادل بين نظامين لغويين مختلفين مع الإشارة إلى استقلالية النظامين عند الفرد المزدوج.

و يسجل أن الازدواجية اللغوية قد حظيت بنصيب وافر في الدراسات المكروسوسيو لسانية الغربية والأمريكية لارتباطها بالهوية اللغوية والثقافية و ولوجها إلى عالم الاستثمار كما تؤكد ذلك المؤتمرات المعقودة للاقتصاد اللغوي في كل من كندا والولايات المتحدة الأمريكية .

حيث أكد الأساتذة في الملتقى الدولي في اوطاوا (كندا) " انه قد حان للازدواجية اللغوية أن تتجاوز الأبعاد اللسانية المحضة والبعد السياسي إلى البعد التجاري والاستثمار في مجال اللغات"(13).

وفى الأخير نشير إلى أنه على الرغم من الآثار السلبية للازدواجية اللغوية كالاغتراب واللاأمن اللغويين وهيمنة اللغات العالمية في ظل العولمة وصراعها مع اللغات القومية والمحلية فان الازدواجية اللغوية أصبحت ضرورة في ظل القرية العالمية وتكنولوجيا الاتصال.

الهوامش والإحالات:

1- عائشة عبد الرحمان لغتنا والحياة دار المعارف مصر 1978 ص 95

2- Tabouret Keller, le bilinguisme à l'age scolaire, PUF, Paris 1969, p 129.

3- Marouzeau in Renzo Titone, le bilinguisme précoce, Charles Dessart, Bruxelles 1974, p 12.

4 - Dubois Jean et al, Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973, p 26.

5 - André Louis Sanguin, les aires linguistiques in encyclopédie de géographie, Economica, Paris 1995, p 903.

6 - Bloomfield Leonard, langage, Compton Printing, London 1933

7- Georges Mounin, dictionnaire de la linguistique, PUF, Paris 1993, p 64

8- زكرياء ميشال، قضايا السنية تطبيقية، دار العلم للملايين 1993 ص 37

9- Ranjat G, le développement du langage chez un enfant bilingue, champion, Paris 1913

10- William Francis Mac Key, Bilinguisme et contact des langues, Klincksieck, Paris 1976, p 111.

11- Maurice Angers, Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines, CEC, Québec, 1996.

12- Boukous Ahmed, Bilinguisme, diglossie et domination symbolique, Denoël, Paris 1985, p 41.

13- Colloque international tenu le 05 mai 1995 à Ottawa, les langues officielles et la perspective économique: Nouvelles réalités et nouveau discours.